الجامعة العربية ومقوماتها الجغرافية والتاريخية

أثار تكوين الجامعة العربية اهتماماً كبيراً فى العالم خلال هذا العام الأخير ، وإن اختلفت وجهات النظر وتباينت البواعث إلى هذا الاهتمام . فقد نظرت كثرة أهل المشرق العربى إلى تأليف الجامعـة على أنه أمل تحقق ؛ وتطلع غير قليل ممن يتكلمون العربية من أهل المغرب الأفريقى وبعض جهات آسيا العربية ذاتها إلى الانضمام إليها على أنه أمل يرتجى ؛ ووقف العالم الخارجى بين مشجع لهذه الحركة الجديدة ومحبذ لها ، وبين مرتاب فى مراميها وأهدافها ، أو محايد يكاد لا يهتم لشأنها بأكثر من أن ينتظر ليرى ما يكون من أمرها فى المستقبل .

ولسنا نود هنا أن نعالج موضوع الجامعة من حيث إنها أمل تحقق أو رجاء يرتجى ، ولا من حيث إنها أمر يشجع أو حادث ترتقب نتائجه وتخشى مضاعفاته ؛ فذلك كله شأن أهل السياسة . وقد يكون من الخير أن ندع ذلك إلى معالجة الموضوع من ناحيته العلمية الخالصة ، التى ترتكن إلى الأسس والمقومات كما يراها طالب الجغرافيا أو دارس التاريخ . ولعل فى هذا النحو من الدراسة ما يلقى ضوءاً جديداً على هذه الجامعة الناشئة ، يبرزها فى وضعها الصحيح أو فيما يقرب منه ، ويكشف لنا بقدر المستطاع عن قيمتها ومغزى تكوينها بالنسبة لأهلها من جهة ، وبالنسبة للعالم الخارجى من جهة أخرى .

يحتل الشرق العربى موقعاً جغرافيًّا فذًّا فى قلب العالم القديم ، تلتقى عنده قارات ثلاث هى آسيا وأوربا وإفريقية ، التى كان لكل منها دورها الخاص فى تاريخ البشرية ؛ ويمتد من سواحله من الشمال بحر قديم كان مهداً لكثير من مظاهر المدنية القديمة والحديثة هو البحر الأبيض المتوسط ، الذى امتاز بهدوء مياهه وانتظام ريحه وانتشار جزره وكثرة تعاريج ساحله وخلجانه ، حيث قامت المرافئ والموانى منذ أقدم العصور . كذلك يتوغل فى هذا الشرق العربى من الجنوب ذراعان للمحيط الهندى والبحر العربى هما البحر الأحمر وخليج فارس ؛ وقد

ارتقت كلا منهما سفن الملاحة ا تية من بحار الهند والشرق الآسيوى البعيد ، أو من شرق إفريقية . ولـكن المهم أن الاتصال البحرى لم يكن تامًّا بين بحار الجنوب وبحار الشمال ؛ وإنما قطعت بين تلك البحار أرض الجزيرة العربية الشمالية ؛ فكان لزاماً أن تمر المتاجر بالبر فى تلك المرحلة ؛ ومن هنا أصبح لسكان تلك المنطقة التحكم فى المواصلات العالمية منذ القدم . ولو أن الجزيرة العربية كانت جزيرة بالمعنى الجغرافى المعروف ، فأحاطت بها المياه من كل جانب ، واتصل البحر المتوسط ببحار الجنوب لتغير وجه التاريخ تغيراً تامًّا ، ولما كانت لشبه جزيرة العرب وما يتصل بها من بلاد وأقطار تلك الأهمية الفريدة فى تاريخ المواصلات العالمية ، وفى علاقات الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

والحق أن هذا الشرق العربى فى جنوب غرب آسيا وشمال شرق إفريقية قد لعب بموقعه الجغرافى دوراً خطيراً فى تاريخ الاتصالات العالميـة وتاريخ البشر بوجه عام . وساعده على ذلك أنه كان مهداً لـكثير من الحضارات القديمة فى مصر وبلاد الشام وسومر وبابل وآشور وعمان وبلاد اليمن ؛ كما نشأت فيـه عدة إمبراطوريات امتد نفوذها وسلطانها إلى الشرق أو الغرب ، أو إلى الإثنين معاً . وكان فوق ذلك مهبط لديانات السماوية الثلاث ، فيه نشأت ، ومنه انتشرت ؛ ومبعث كثير من ألوان الفـكر والثقافة العالمية التى بقيت على الزمن . ولو أننا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية المـكتوب وحسبنا أنه يمتد خلال خمسة آلاف عام أو نحو ذلك ، لـكان من الطريف أن نذكر أن هذا الإقليم الذى نحن بصدده — أو أن أجزاء منـه على أقل تقدير — كانت مركز القوة السياسية الأول ومبعث الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية خلال ما يقارب ثلاثة أرباع تلك الفترة . وإذا قيست أهمية أقاليم وجه الأرض فى تاريخ البشر بطول الحقبة التى كان فيها كل منها مركز السلطان ومبعث المعرفة ، لـكانت لهذا الإقليم المـكانة الأولى بين الأقاليم . . . ولعل من الخير والإنصاف أن تتمثل هذه الحقيقـة البسيطة أمام أعيننا ، حتى لا يضلنا تغير الظروف والأحوال فى الوقت الحاضر والزمن الذى نعيش فيه ، فلا ندرك أهمية إقليمنا ولا نقدر مكانته العالمية على وجهها التاريخى الصحيح .

ويتألف هذا الشرق العربى فى داخليته من نواة صحراوية أو شبه صحراوية ، تقل فيها الأمطار ولا ينتظم سقوطها ، وتتمثل فيها حياة البادية العربية المعروفة ؛

فلا يستقر بها السكان إلا فى عدد من الواحات أو حول الآبار. وقد اخترقت تلك النواة منذ فجر التاريخ طرق القوافل ، التى سار عليها حداة الإبل ووسطاء التجارة ، فنقلوا السلع والمتاجر ، وحملوا معهم أنواع الفكر والثقافة ؛ فكان ذلك الاحتكاك المثمر فى بعض الواحات ومراكز الاتصال ؛ ولقحت المدنية الخارجية حياة العرب وحضارتهم منذ البداءة. كما استطاع البدو وتجارهم أن ينشروا نتاج بيئتهم الفكرى إلى الخارج ؛ وكان هؤلاء التجار فوق ذلك وسطاء ثقافة ، حملوا رسالة الفكر والمدنية بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وبين أهل البحار المعتدلة والباردة وأهل البحار الدفيئة والحارة. ولم يكن غريباً بعد كل هذا أن ترتبط التجارة والثقافة فى حياة العرب وسكان الجزيرة الداخلية ذلك الارتباط القوى الذى تمثل فى حياة النبى عليه الصلاة والسلام.

وعلى جانبى تلك النواة الصحراوية الداخلية التى تمثل قلب الشرق العربى ، والتى لم تكن نواة صماء ، وإنما اخترقتها الطرق فى جميع الاتجاهات ، ونفذت إليها الحياة الخارجية من كل سبيل ، كان هناك نطاقان من الحياة المستقرة فى أراض يزيد فيها المطر زيادة نسبية ، أو يتوافر بها الماء من المجارى والأنهار. ويحف أحد النطاقين بالنواة من جهة الجنوب ، لا سيما الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ؛ كما يحف بها النطاق الآخر من جهة الشمال ، ويمتد خارج الجزيرة إلى شمال شرق إفريقية. ففى جنوب صحارى بلاد العرب ونجادها الوسطى كانت هناك اليمن وحضرموت وعُمان ، وهى كلها مراكز لحضارات قديمة قبل الإسلام. فقد نشأت فى اليمن وأطراف حضرموت الحضارات المعينية والسَّبئية والحميرية فى ألف السنة السابقة لميلاد المسيح والخسمائة السنة اللاحقة به. ونشأت فى عمان حضارة أخرى قديمة لا نعرف عنها الشيء الكثير ؛ ولكن بعض الباحثين يرى أنها ربما كانت أقدم من حضارة اليمن ، وأنها كانت على اتصال بأجزاء مختلفة من الجزيرة ، بل إن السومريين أنفسهم ربما جاءوا فى الأصل من تلك البلاد أو من جوارها قبل أن يستقروا فى جنوب العراق .... وسواء أصح هذا أم لم يصح ، فإن اتصال سكان الجزيرة الجنوبيين فى عُمان وحضرموت واليمن بسكانها الشماليين أمر تاريخى قديم لا جدال فيه ، وقد اشتد ذلك الاتصال بنوع خاص فى العصر الجاهلى وبعد ظهور الإسلام. وكان لهؤلاء الجنوبيين فضل كبير فى نشر الثقافة العربية والدين الإسلامى بالبحر إلى شرق إفريقية وجنوب آسيا وجزر الملايو

وأندونيزيا ؛ فكانوا بذلك رسل الثقافة العربية ودعاتها فيما وراء البحار ؛ وقد عرف الحضارمة منهم بنوع خاص بأنهم « فينيقيو البحار الجنوبية » .

ومع ذلك فإن الجامعة العربية بتكوينها السياسي الحالى لا تشمل من جنوب بلاد العرب غير اليمن ، فى حين أن الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية تقضى كلها باعتبار حضرموت و عُمان منطقتين متممتين لهذا الشرق العربى من ناحية الجنوب . ولابد أن ننتظر اليوم الذى تنضم فيه تلك البلاد إلى الجامعة ، إذا أرادت هذه الأخيرة أن يتسق تكوينها السياسى مع تكوينها الجغرافى ، وأن تستكمل مقوماتها الطبيعية والتاريخية جميعاً .

كل هذا عن النطاق الذى يحف النواة الصحراوية من ناحية الجنوب . فأما النطاق الشمالى ذو الحياة المستقرة والمدنيات الحضرية القديمة فيشمل ما يعرف باسم « الهلال الخصيب » ، كما يمتد إلى شمال شرق إفريقية لتدخل ضمنه مصر ووادى النيل الأوسط فى السودان . فأما الهلال الخصيب فيتألف من منطقة تمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، تتوغل فيه بادية الشام . ولهذا الهلال شقان هما العراق والشام بمعناها الأوسع . والعراق فى جملته سهل منبسط تحف به الجبال فى الشرق والشمال ، وتجرى فوقه أنهار دجلة والفرات وقارون وروافدها المنحدرة من الجبال . وقد نشأت بالعراق منذ القدم حضارات متتابعة ، كان بعضها فى أسفله مثل سومر ، وبعضها فى وسطه مثل بابل ، وبعضها فى أطرافه الشرقية مثل آشور . ولكن المهم أن العناصر السامية استطاعت فى النهاية أن تكتسح معظم أراضيه اكتساحاً ، وأن تصبغها بالصبغة السامية ؛ حتى إذا ما جاء العرب وتوسعوا من داخلية الجزيرة قبل الاسلام وبعده ، لم يلقوا عناء كبيراً فى أن ينشروا فيه لغتهم ودينهم وثقافتهم ؛ وفى أن يتخذوا منه قاعدة ينشرون منها معالم تلك الثقافة نحو الشرق إلى إيران وتركستان . واستطاع العراق فى العهد العربى بمختلف أدواره أن يكوّن وحدة ثقافية ؛ حتى إذا ماجاء العهد الحديث كانت هذه الوحدة الثقافية عاملا هامًّا فى وحدته السياسية رغم وجود بعض العناصر الكردية وغير العربية فى أقصى الشمال .

أما الشق الشامى من الهلال الخصيب فأكثر تعقيداً من الشق العراقى ؛ لأن الطبيعة لم تجعل معه سهلا مستوياً تجرى فوقه الأنهار تربط بين مختلف أجزائه ، وإنما جعلت منه إقليما معقد السطح والتضاريس . فى شماله توجد سلاسل لبنان

الشرقية والغربية، التى تفصل بين سوريا وسواحل لبنان. والأولى ذات حيضان وسهول داخلية، تتجه نحو البادية، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً. أما لبنان فإن سفوح جباله الغربية وسهله الساحلى الضيق تتجه نحو البحر المتوسط، وترتبط حياتها به ارتباطاً يرجع إلى أيام الفينيقيين. وقد تأثر ساحل لبنان أكثر مما تأثر غيره من أقاليم الشرق العربى بحياة الملاحين فى شرق البحر المتوسط، وبثقافة الإغريق والروم الشرقيين؛ وظهرت آثار ذلك فى العهد المسيحى، وفى الكنائس الطائفية التى لاتزال قائمة حتى الآن.

وإلى الجنوب من سوريا ولبنان هناك شرق الأردن وفلسطين؛ وهما فى الحقيقة يمثلان منطقة واحدة، وإن كان يقسمهما منخفض الأردن والبحر الميت إلى شطرين، داخلى هو شرق الأردن، وساحلى هو فلسطين. وقد يكون من المهم هنا أن نلحظ الفرق الكبير فى التكوين الطبيعى بين ساحل فلسطين من جهة وساحل لبنان شمال حيفا من جهة ثانية؛ فالأول رملى منخفض تكثر به الرواسب، ويكاد يخلو من المرافئ الطبيعية الصالحة، وإنما ترجع أهميته إلى الطرق البرية التى كانت تخترقه أو تسير على طوله وتربط ما بين مصر وشبه جزيرة سينا من ناحية، وداخلية الجزيرة العربية الشمالية وبقية أرض الهلال الخصيب من ناحية أخرى. أما ساحل لبنان من حيفا شمالا فصخرى فى أكثر أجزائه، ويوجد به عدد من المرافىء الطبيعية التى استخدمت فى العصور القديمة مثل صور وصيدا، والتى لاتزال تستعمل فى الوقت الحاضر مثل بيروت. وقد مثل هذا الساحل على الدوام المدخل البحرى الأساسى لتجارة الشق الشامى من الهلال الخصيب؛ واستطاع أن يحتفظ بمكانته هذه على مر العصور. فكما تحكم الفينيقيون فى تجارة مملكة سليمان البرية التى كانت تشمل أراضى فلسطين والشام الداخلية، كذلك استمرت موانى لبنان ومرافئه الساحلية متحكمة فى تجارة الشرق الأدنى فى العصور الوسيطة، ولا تزال فى الوقت الحاضر تلمس اعتماد سوريا الداخلية على بيروت (والاسكندرونة قبل أن تضم إلى تركيا) فى تجارتها البحرية. ولذلك كله فقد يكون من الخير فى معرض الحديث عن التكوين السياسى والقومى لكل من سوريا ولبنان أن نجمع بين حقيقتين لاسبيل إلى الأخذ بإحداهما دون الأخرى: فأما الحقيقة الأولى فإن مقتضيات البيئة الطبيعية والتوجيه الإقليمى والتاريخ الثقافى تقضى بأن يكون لكل منهما كيانها القومى والسياسى المستقل.

وأما الحقيقة الثانية فإن مقومات الحيـاة الاقتصادية السليمة والمصالح المادية المشتركة تقضى بأن يكون بينهما أوثق الاتصال ، وبأن يكونا بمثابة الشقيقين التوأمين فى أسرة الأمم العربية .

فإذا ما نحن خرجنا من الجزيرة العربية بمعناها الجغرافى الضيق ، وانتقلنا إلى شمال شرق إفريقية وجدنا أرض وادى النيل ، التى ارتبطت فى تاريخها الطويل بالشرق الآسيوى المجاور ، وكانت فوق ذلك واسطة الاتصال بينه وبين الخارج فى بعض أدوار ذلك التاريخ . والحق أن الجغرافيين المحدثين لا يفرقون الآن بين شمال شرق إفريقية وجنوب غرب آسيا ؛ فهى كلها تؤلف إقليما جغرافيًّا واحداً ، رغم وجود البحر الأحمر بينها . وقد وثّقت الطبيعة الصلة بين مصر وغرب آسيا ؛ فأعدت طريقاً طبيعيًّا سهلاً يصل بينهما ، ويسير على طول الساحل الشمالى لشبه جزيرة سينا ، حيث تسقط الأمطار فى فصل الشتاء فتتشربها كثبان الرمال المنتشرة على الساحل ، وتختزنها لتغذى بها الميـاه الجوفية طوال العام ؛ وبذلك كثرت الآبار وتوافرت المياه على طول الطريق . وقد كان طريق سينا الشمالى هذا هو طريق الغزوات السامية العديدة التى جاءت من الشرق إلى مصر فى أيام قدماء المصريين ، كالهكسوس وغيرهم ؛ ثم جاءت عنه غزوة العرب وهجرات قبائلهم خلال العهد الإسلامى ؛ وكذلك خرجت على طول هذا الطريق غزوات المصريين وحملاتهم إلى الشرق القريب فى أعصر التاريخ المختلفة . ولا تزال لهذا الطريق أهميته العسكرية الكبرى ؛ فهو مفتاح مصر من ناحيـة الشرق ، وفيه تسير الآن سكة حديد فلسطين ، وجانب من طريق السيارات البرى الجديد . وكلما سهل الاتصال وتيسر من هذا الطريق استوثقت العلاقة بين مصر وجاراتها العربية ، وبرزت قيمة اهتمام مصر بشؤون تلك الجارات . ولا بد هنا من ان نشير بصفة خاصة إلى موقع فلسطين عنـد طرف مدخل مصر الشرقى . ذلك أن فلسطين بوصفها الحالى هى الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربى . فحدودنا البرية من الشرق لا تلاصق بلداً غيرها ، ولا يمكن أن يتم الاتصال البرى بيننا وبين بقية بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسـطين . وإذن فإن فلسطين إن هى بقيت خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تسـتطيع أن تكون حاجزاً حقيقيا بين مصر وبقية بلدان الجامعة ؛ فيعوق مثـلا تنفيذ أية اتفاقية جمركية لتيسـير تبادل المنتجات والمتاجر ونقلها بين أقطار الجامعة ، أو تعوق

مرور أنابيب البترول الحجازية إلى إحدى موانى سواحل مصر للتكرير والتصدير ، أو تعرقل أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق ، أوغير ذلك من الحالات التى قد تبدو افتراضية محضة فى الوقت الحاضر ، ولكنها قد تصبح واقعية ومؤلمة إذا لم تنل فلسطين ما يريده لها العرب من كيان سياسى عربى مستقل .

وفوق ذلك فإن لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية ؛ فهى تعتبر قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ؛ وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان الشرق العربى كله . وإذا لم يضمن العرب أعضاء الجامعة الجديدة أن تبقى فلسطين للعرب ، وإذا لم يضمنوا فوق ذلك أن تبقى أرضها فى أيد صديقة حتى يتم إنشاء الدولة الفلسطينية العربية ، فإنهم لا يضمنون شيئاً بالنسبة لكيان الجامعة كلها من الناحية العسكرية . ولعل مصر تتأثر من هذه الناحية أكثر من غيرها ؛ فهى كما ذكرنا تقع وحدها فى جانب من فلسطين ، ويقع باقى أعضاء الجامعة فى الجانب الآخر ؛ كما أن فلسطين وشبه جزيرة سينا كانا على الدوام مصدر خطر بالنسبة لمصر ، وطريق غزوات تاريخية كثيرة أتتنا من الشرق أيام قدماء المصريين والفرس والإغريق والعرب والأتراك ؛ وحتى الإسكندر الأكبر نفسه الذى بدأ حملاته من بلاد مقدونية واليونان ، أتى مصر عن طريق فلسطين ؛ فقد كان غزو مصر من هذه الجهة سهلاً ميسوراً ، بل كان فيما يبدو أسهل من غزوها بطريق البحر .

ومع ذلك فقد يفيد أن نضيف هنا أن مصدر الخطر بالنسبة لمصر يتعدى فلسطين إلى ما وراءها من جهة الشمال . ومن الحقائق العسكرية القديمة أن من يريد أن يدافع عن مصر إنما يجب أن يقف فوق تلال سوريا وجبال لبنان . وقد كان «تحتمس» الثالث أول من أدرك هذه الحقيقة من العسكريين القدماء ؛ فرأيناه فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد يقوم بحملاته السبع عشرة المشهورة إلى فلسطين أولا ، ثم إلى لبنان وسوريا ثانياً ، ليؤمن حدود مصر من هذه الناحية . ولعل هذه الحقيقة التى أدركها تحتمس منذ خمسة وثلاثين قرنا قد عادت فبرزت فى أيام المماليك عندما دافع سلاطين مصر عنها فى عين جالوت ، ثم فى حمص وغيرها وردّوا عنها خطر الغزو المغولى ؛ ثم برزت مرة أخرى فى ثوب جديد فى أيامنا نحن عندما وجد الحلفاء أنفسهم مضطرين إلى مهاجمة سوريا ولبنان

خشية أن يوطد المحور أقدامه فيها فيكون مصدر خطر حقيقى بالنسبة لمصر والشرق العربى جميعاً .

على أن الأمر فيما يتصل بمصر لا يقف عند أنها كانت وثيقة الصلة ببقية الشرق العربى ؛ ولا عند أنها تكوّن جزءاً أساسيًا من هذا الإقليم الذى تشغله بلدان الجامعة ؛ وإنما يجب فى الوقت نفسه أن نلحظ أن مقومات الحياة فى مصر ذاتها ترتبط بناحية ثانية غير الشرق الآسيوى ، هى وادى النيل من ناحية الجنوب . فقد قضت الطبيعة أن تمتد حدود مصر « الحيوية » فى هذه الجهة الأخيرة إلى أبعد كثيراً من حدودها « السياسية » . ولذلك كان على مصر أن تستمسك بصلاتها ومصالحها فى الجنوب استمساكها بصلاتها ومصالحها فى الشرق . بل لذلك كان اتصال مصر بالجنوب قديماً قدم اتصالها بالشرق ؛ ولما كان ذلك الاتصال بالشرق قائماً على تبادل المنفعة والتجارة واحتكاك الفكر وانتشار الثقافة ، كان الاتصال بين مصر والجنوب قائما كذلك على هذه الأشياء جميعاً وعلى شيء آخر فرضته الطبيعة فرضاً ، فأحسه المصريون إحساساً واستجابوا له بفطرتهم ، فاتجهوا نحو الجنوب لأنه مصدر الحياة ، ونشروا حضارتهم فرعونية ومسيحية وإسلامية فى ربوع السودان ، بل تخطوه إلى بلاد أخرى فى شرق إفريقية ؛ وترتب على ذلك كله أن توطدت الصلات البشرية وتمكنت الروابط التاريخية ، فأضفت على الوحدة الجغرافية قوة جديدة ، لا بد أن تنتهى مهما طال الزمن ، ومهما كثرت العراقيل المصطنعة ، إلى أن يتصل ما قضت الطبيعة — وما أمر الله — به أن يوصل بين مصر والسودان . . . وإلى أن يتم ذلك ينبغى أن نواجه الحقيقة المزدوجة ، والتى لا يمكن تجاهلها ، وهى أن مصر لن تجد أمنها كاملا إن هى اكتفت بتحقيق صلاتها المكينة مع الشرق العربى الآسيوى دون أن تستكمل وحدتها فى الجنوب ؛ وأن هذا الشرق العربى ذاته لن يجد قوته كاملة ما لم تكن مصر والسودان معاً عضواً أساسيًا عاملا فى جامعة أممه الجديدة .

والآن وقد فرغنا من استعراض الروابط الجغرافية والتاريخية بين مختلف أقطار الجامعة ، نستطيع أن نعرض فى إيجاز لتاريخ الحركة التى انتهت بتأليف الجامعة ؛ فقد ينير ذلك التاريخ سبيلنا فى تحقيق مغزى هذه الحركة وتحديد أهدافها ومراميها ، واستشفاف بعض ما قد ينتهى إليه أمرها فى المستقبل . وهذه

الحركة كغيرها إنما جاءت وليدة تطور بطىء فى الفكر والتنظيم داخل نطاق العالم العربى فى الشرق القريب ، وتطور بطىء أيضاً (وإن لم يخل من مفاجآت وتحولات سريعة أحياناً) فى علاقة سكان ذلك الشرق والعالم الإسلامى عامة بالعالم الخارجى . وقد نذكر أن انتشار الإسلام اقترن منذ البداءة بحركات سياسية كبرى صحبت إنشاء الإمبراطوريات والممالك العربية المتتابعة ؛ ورغم تقلب السيادة وانتقالها فى النهاية من أيدى العرب إلى أيدى الأتراك ، ودخول الشرق أثر ذلك فى عش مظلم ساده الانحلال والركود ، فقد احتفظ العالم الاسلامى فى جملته باستقلاله السياسى خلال قرون ثلاثة أو تزيد ؛ حتى إذا ما انتهى القرن الثامن عشر وطلع القرن التاسع عشر ، وجاء نابليون بحملته المشهورة على مصر والشرق العربى كان ذلك فاتحة عهد جديد ؛ إذ كانت هذه أول ضربة موجهة إلى قلب العالم الاسلامى ، لفتت النظر إلى أهميته الكامنة ، وقيمته بالنسبة للتسابق الأوربى نحو السيطرة العالمية . ومع أن حملة نابليون هذه أخفقت فى غرضها المباشر من احتلال مصر وقطع الطريق على الإنجليز إلى إمبراطوريتهم فى الهند ، فإنها كانت نقطة تحول فى التاريخ عامة ، وفى تاريخ اتصال الشرق بالغرب والعالم الإسلامى بأوربا بصفة خاصة . وربما كانت الحملة الفرنسية من هذه الناحية من أبعد حروب نابليون أثراً وأبقاها ذكراً على الزمن .

وقد تتابع الضغط الأوربى والتوسع السياسى على حساب العالم الإسلامى خلال القرن التاسع عشر . ولم يكن غريباً أن يؤدى اطّراد الضغط والتوغل فى بلاد المسلمين وممتلكاتهم إلى رد فعل سياسى ، فنشأت فى الربع الأخير من القرن الماضى حركة خطيرة كان على رأسها جمال الدين الأفغانى ، وهى حركة « الوحدة الإسلامية » ، التى رمت إلى تحرير البلاد الإسلامية وإعزاز جانبها دفعاً للخطر الأجنبى . وقد فسرت هذه الحركة إذا ذاك تفسيرات مختلفة ؛ فقال بعضهم إنها إحياء لحركة التوسع الإسلامى القديمة ، وإنها تنطوى على خطر كبير وشر مستطير بالنسبة لأوربا والمسيحية عامة . وقال بعضهم إنها وإن لم تستطع أن تعيد عهد السيف وأن تعلن الجهاد المسلح فإنها ستبعث روح التعصب وتغذى عناصر الحقد والكراهية التى لابدّ أن تجر الشرق والغرب فى النهاية إلى التطاحن والخراب . وقالت فئة قليلة إن هذه الحركة لا تعدو أن تكون نفخاً فى الهواء يثير الزوابع المحلية ولكنه لن يستطيع أن يبعث فى الشرق روح الجهاد كما بعثها

ظهور الإسلام لأول مرة . والحقيقة أنها كانت حركة طبيعية ، ونتيجة لأزمة لما سبق به الغرب من توغل واستفزاز ؛ ولم يكن الشرق ولا الدين مسئولين عنها بأكثر من الغرب ومن السياسة . وليس أدل على أن الدافع السياسى الكامن فى هذه الحركة كان أقوى من الدافع الدينى الظاهر ، من أنها ما لبثت — رغم تسميتها « بالوحدة الإسلامية » — أن تحورت وانقلبت بالتدريج فى أوائل القرن الحالى إلى حركتين عنصريتين فى داخل العالم الإسلامى ، وهما حركة الوحدة الطورانية أو التركية ، وحركة الوحدة العربية . وكانت هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هى موجهة ضد الغرب المسيحى .

والذى يعنينا فى شأن حركة الوحدة العربية أنها كانت تمثل المرحلة الثانية فى الوعى السياسى الحديث للشرق العربى . ولم يكن هذا الشرق فى أوائل القرن الحالى قد أصابه كثير من ضغط أوربا المسيحية ، فيما عدا مصر التى استولى عليها الإنجليز ، بل كان ذلك الشرق فى جملته لا يزال تحت حكم العثمانيين بالفعل أو بالاسم . لذلك لم يكن هناك سبيل إلى أن تتخذ الحركة العربية مظهراً دينياً ؛ وإنما هى قد ظهرت على حقيقتها منذ البداءة . ولكنها كانت بذلك أدعى إلى القوة ، وأدنى إلى الحقائق العملية من الحركة الإسلامية الأولى ؛ فضلاً عن أن العالم العربى كان أصغر كثيراً من العالم الإسلامى ؛ وكانت أجزاؤه أكثر تقارباً وتماسكاً ، وشؤونه الاقتصادية أكثر تداخلاً وتشابكاً ، وثقافته أكثر وحدة واتساقاً من العالم الإسلامى الكبير الذى يشمل الهندى والفارسى والتركى والعربى وغيرهم من ذوى الأقطار المتباعدة ، والمصالح المتفرقة ، والثقافات المختلفة ، والاتجاهات المتباينة التى يصعب الجمع بينها فى كيان سياسى واحد .

لذلك كله نشأت حركة الوحدة العربية وهى أصلح للبقاء والنمو من الحركة الإسلامية . وقد أفادت الحركة الجديدة من الحرب العالمية الأولى عندما انحاز العرب إلى جانب الحلفاء ضد تركيا التى انضمت إلى المعسكر الألمانى النمسوى . ومع ذلك فإن آمال العرب الواسعة وما حصلوا عليه من وعود وعهود كثيرة لم يتحقق منها غير جانب ضئيل محدود . ذلك أن الحرب التى أبرزت قيمة الموقع الجغرافى والعسكرى للشرق الآسيوى القريب أطمعت فيه الدول المستعمرة وذات المصالح فى الشرق عامة . وقد جاهد العرب وناضلوا فى إزاحة سلطان الأتراك ، ولكنهم لم يرقوا إلى مكان السيادة إلا رقيًا جزئيًا محدوداً ، وفى

المناطق الداخلية البعيدة من الجزيرة كنجد أو المنزوية وغير المعروفة كاليمن الأعلى. أما السواحل العربية والمناطق الهامة فى المرور والمواصلات أو الغنية بموارد الزيت وغيرها فقد امتدت إليها الأيدى عارية سافرة أو مُقفّزة مستورة؛ فكان فتح واحتلال، وكان نفوذ وانتداب؛ وخرجت بريطانيا وفرنسا بنصيب الأسد ونصيب النمر؛ بعد أن حاولت أمريكا أن تكون لها يد، ثم كفّت عن ذلك وتقاعدت بعيدة عن الشرق ومشكلات الشرق.

وفى هذه الأثناء كان الوعى السياسى فى الشرق العربى قد دخل فى المرحلة الثالثة من مراحل تطوره الحديث؛ إذ أخذ الشعور القومى المحلى يتسرب إلى هذا الشرق بمختلف أصقاعه وبيئاته خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين؛ وأخذت فكرة «الأمة» تتبلور فى أوطان صغيرة وأقاليم محدودة. ولم يعد أساس فكرة «القومية» و«الأمة» الاشتراك فى الدين، كما كانت الحال فى المرحلة الأولى أيام حركة الوحدة الإسلامية، ولا الاشتراك فى اللغة والثقافة، كما كانت الحال فى المرحلة الثانية إبان الأيام الأولى لحركة الوحدة العربية؛ وإنما أصبح ذلك الأساس هو «الوطن» و«القومية الوطنية» التى تتصل ببيئة معينة وإقليم معين، تعيش داخل حدوده جماعة بشرية تتشابك بين أفرادها المصالح ومقومات الحياة مادية ومعنوية، ويكون من الميسور توجيه جهودهم والإعراب عن آرائهم بتلك الوسائل التى اصطنعتها وأخذت بها الأمم والقوميات الحديثة فى أوربا خلال الجيلين السابقين. وكانت شعوب الشرق العربى قد أخذت تدرك أن الظروف والأوضاع السياسية قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه من قبل. فشروع الوحدة العربية لا يسهل تنفيذه فى صورته النظرية؛ كما أن الوحدة الثقافية العامة لا تكفى أساساً لقيام الوحدة السياسية والقومية؛ خصوصاً إذا تشعبت المصالح المادية والنزعات القومية، وإذا اختلفت مراحل النضج السياسى وتباينت نظم الحكم فى مختلف الأقطار.

ولكن الحرب المنتهية مالبثت أن جاءت بعنصر جديد؛ أو هى بعبارة أدق قد عجلت ظهور هذا العنصر الجديد. فبعد أن كان الشرق الأدنى فى الحرب العالمية الأولى ميداناً ثانويًّا، إذ به يصبح فى الحرب الثانية ميداناً أساسيًّا من ميادين القتال، تجمعت فيه القوات المحاربة بأعدادها الضخمة من أغلب أقطار العالم، ودارت فيه ملاحم كبرى كان بعضها فاصلا وحاسماً فى تقرير مصير الحرب

كلها . فبرزت قيمة هذا الإقليم الحيوية ، وزاد اهتمام الدول الكبرى بشؤونه العامة ، بكثير جداً من شؤونه التفصيلية الخاصة ؛ ونبه ذلك أهل الإقليم إلى أن بلدانهم وأقطارهم تحتل موقعاً جغرافياً بالغ الخطورة من ناحية المواصلات العالمية ؛ وما تسابقت الأمم المتحاربة الكبرى فى زحفها نحو هذا الموقع إلا لقيمته الفاصلة فى كل ما يتصل بالسيطرة العالمية فى الحرب والسلم على السواء . وما دام الأمر كذلك فإن مصاير الشرق الأدنى وتاريخه القابل ستبقى مرتبطة أشد الارتباط وأوثقه بالشؤون العالمية والمصالح الدولية . ولن يفيد فى مثل هذا الموقف الدولى أن يكون لكل وطن صغير فى الشرق العربى استقلاله القومى ؛ فقد لايلبث مثل ذلك الاستقلال أن يذهب مع الريح ، التى قد تهب من الغرب أو من الشمال ، أو هى قد تعصف عاتية كالإعصار من جميع الجهات ، فتكون الطامة الكبرى ، وتأتى الريح الصرصر على كل شىء ، وتطوح بأهل المشرق إلى أسفل الدرج من جديد

فى هذه الظروف بدأ القائمون على شؤون أمم الشرق العربى يدركون ضرورة إيجاد نوع من التعاون بينها جميعاً ؛ لعل ذلك يشد من أزرها ، ويقطع الطريق على بعض ذلك التنافس والتسابق بين الدول الكبرى على استغلال تفرق الكلمة بين أمم الشرق . وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد نحو التعاون ، أن بريطانيا التى تجمع لها من الخبرة والتجربة فى شؤون هذا الشرق ومن المصالح الحيوية فيه أكثر مما تجمع لغيرها من الأمم القوية ، قد أحست حاجتها إلى أن تعدل سياستها التقليدية ، وإلى أن تساير الاتجاهات الجديدة قبل أن يسبقها الزمن ، فأعربت عن عطفها غير المباشر على ما قد يبذله قادة الشرق العربى أنفسهم من مسعى فى سبيل التعاون المنشود . . . وهكذا تهيأت الظروف وتسابقت الحوادث حتى تم تأليف جامعة الأمم العربية التى نحن بصددها الآن .

على أن من المهم أن نلحظ أن هذه « الجامعة » العربية بتشكيلها الحالى تعتبر خروجاً واضحاً على مبدأ « الوحدة » العربية كما كان مفهوماً من قبل . وقد تقدمت شعوب الشرق العربى حثيثاً نحو الاستقلال القومى ؛ فنظرت — أو نظر فريق منها على الأقل — إلى « الوحدة » السياسية على أنها رجوع إلى وراء ، وعلى أنها أمر لا سبيل إلى تحقيقه بالمعنى الضيق للوحدة ، بعد أن اتخذت هذه الدول الناشئة سبيلها إلى تحقيق الاستقلال القومى فى كثير من

الأشياء ، بل بعد أن أخذ كل منها بنظامه الخاص فى الحكم والإدارة إلى حد لم يستطع معه قادة الشرق أن يفكروا حتى فى إقامة « اتحاد » من الأمم أو القوميات العربية على نحو ما نجد فى الولايات المتحدة الامريكية ، أو اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وعلى ذلك لم يكن بد من الاكتفاء « بجامعة » تحتفظ فيها كل دولة بكيانها المستقل ، ولا ترتبط ببقية الأعضاء إلا بالمشاورة الحرة وفى حدود ما اتفق عليه الأعضاء مختارين ، تحقيقاً للمصالح المشتركة ، وضماناً لما عسى أن يصيب الأعضاء منفردين أو مجتمعين من خير لابد أن يترتب على اجتماع كلمتهم فى عالم لا تكاد الصيحات الفردية الضعيفة تجد فيه صدى ولا ترديداً .

ومع ذلك فقد لا نبعد كثيراً عن الحق إذا نحن قررنا أن مشروع الجامعة كما أخذ به كان خير ما يمكن التوفيق به بين فكرة الوحدة من جهة ، وبين ما استجد على الشرق العربى وأقاليمه من وعى سياسى قومى وما اقتضته الظروف الدولية ونظام العالم الجديد من جهة أخرى . وقد لا يبعد أن تثبت الأيام أن هذه الخطوة التى خطاها الشرق العربى كانت خطوة سديدة خطتها شعوبه فى الاتجاه الصحيح ، وأن السياسة التى أملتها لم تكن سياسة عاطفية متطرفة بقدر ما كانت سياسة عملية تقوم على الاعتدال وإدراك الحقائق . بل قد لا يبعد أن تكون الجامعة فى قابل الأيام أداة صالحة لتحقيق التعاون الدولى فى هذا الإقليم الذى يعتبر محكاً خطراً للعلاقات الدولية والعالمية ، وأن تكون فوق ذلك وسيلة صالحة لتوحيد الجهود واستكمال ما نقص من استقلال كثرة أعضائها الحاليين ، وتمهيد السبيل لاستقلال بقية الشعوب العربية التى لا تزال خارج الجامعة ، ولكنها تتوق إلى الانضمام إليها فى يوم من الأيام .

***

وبعد فإن الشرق العربى كان منذ أقدم العصور مدرسة للإنسانية فى كثير من الأشياء . ففيه نشأت غير واحدة من المدنيات القديمة ؛ وفيه ظهرت الأديان السماوية ، ومنه انتشرت ذات اليمين وذات الشمال ؛ وفيه احتك الشرق بالغرب ، فتعارف الاثنان ، وتعلم كل منهما من الآخر بعض مالم يكن يعلم . وقد مر الشرق العربى فى تاريخه الطويل بكثير من التجاريب والأحداث ؛ ولا

شك أن تاريخه القابل سيحفل بمثل ماحفل به ماضيه . وربما كان مرجع الاضطراب السياسى وعدم الاستقرار فى هذا الإقليم إلى أن بلدانه ذات تقاليد قديمة راسخة فى الحياة والحكم والثقافة ؛ وكل جديد فيها لابد أن يتسق مع القديم الذى لم يستطع الزمن أن ينسخه . ولذلك كان طبيعيًا ألا تستقر النظم الجديدة فى سهولة ويسر . ومع ذلك فإن الشرق العربى يمر الآن بتجربة يكاد يسبق بها الزمن ؛ فهو يحاول أن يوفق فى نظامه السياسى بين القومية الضيقة التى ترتبط بوطن معين ، وأمانى قومية لا تخلو من أنانية ، وبين التعاون الدولى فى جماعة من الأمم المتقاربة وذات المصالح المشتركة . ولا بد أن يؤدى هذا التوفيق إن نجح إلى تهذيب الشعور القومى ، وتلطيف روح العصبية الإقليمية ، على نحو يعلم الأمم الصغيرة كيف تعمل وتضحى من أجل جاراتها وزميلاتها فيما تنتسب إليه من جامعة أو جامعات ، هى مثال مصغر لما تسعى إليه الإنسانية من هيئات عالمية شاملة . بل لعل تجربة الجامعة العربية إن هى نجحت — ونجاحها متوقف على معاونة العالم الخارجى بقدر ما هو متوقف على إخلاص أعضاء الجامعة وقبولهم التضحية — لعلها أن تكون مثالا يحتذى فى مناطق مشابهة من العالم ، كأمريكا اللاتينية ، التى تشترك أممها ، أو تكاد تشترك ، فى اللغة والثقافة والمصالح العسكرية ؛ أو كأمم جنوب شرق أوربا ، التى تشترك فى الموقع الجغرافى والمصالح الاقتصادية ، وإن تباينت فى الجنس والثقافة . . . ومن يدرى ! لعل نجاح الجامعه العربية يكون درساً جديداً فى التنظيم والعلاقات الدولية يضيفه الشرق إلى ما قدم للإنسانية والعالم فى تاريخه الطويل من دروس ! .

سليمان حزين